تجربة التعاون المدرسي في الميزان

الزبير مهداد

ظل كثير من المربين يشتكون من قصور المؤسسة المدرسية ، فقد كان مجهود المدارس ينصب أساسا على تلقين الصبيان المعارف بطرق جافة غير مجدية، ودون أدنى اهتمام بحاجاتهم إلى النشاط والحيوية وإثبات الذات، وإلى العلاقات التبادلية التي تلبي حاجاتهم إلى المودة والثقة في النفس. وأدى ذلك إلى جمود الحياة المدرسية، وتعلمات سطحية سرعان ما تزول من أذهان التلاميذ وينسونها، بل وقد لا تجديهم في حياتهم اليومية؛ ولعل أسباب هذا القصور تعود إلى قلة الإمكانات المادية المتاحة لهذه المؤسسة وإلى عدم جرأة الهيأة التعليمية في الإقدام على المبادرة الأدبية والتربوية، نتيجة الطبيعة الجافة والمحافظة للتعليمات والقوانين التي تتحكم في عمل المؤسسات وتضيق الخناق على المبادرة الحرة.

تعليم تعاوني نشيط بديل

يعتبر سيليستان فرينيه صاحب الفضل على التعليم الفرنسي في تأسيس وتكوين أول تعاونية مدرسية حقيقية، إذ أن هذا المعلم القروي المغمور، معطوب الحرب، ذي الميول الاشتراكية، الشغوف بحب المهنة، الحدوب على الأطفال؛ أنشأ عام 1925 تعاونية مدرسية يسيرها مجلس إداري، من مهامها تنظيم

أنشطة تربوية وفنية واجتماعية لتلاميذ المدرسة، والبحث عن مصادر تمويل مالية لتنفيذ الأنشطة كالرحلات الدراسية والمجلات المدرسية والحفلات والمعارض والعروض المسرحية والمساعدات وأعمال التضامن الاجتماعي.

جعل فرينيه من حجرة الدرس المملة الباردة فضاء لممارسة الأنشطة التربوية الموازية الحيوية، وأصبح الطفل لا يكتفي باكتساب المعرفة تلقيا من المعلم، بل يعتمد على نشاطه الذاتي وفعاليته في اكتشاف المعارف واختبار القواعد، والمعلم أصبح منشطا لجماعة من الأطفال ملزما بالحيوية ومخالطة الأطفال والانسجام معهم والاندماج في محيطهم الصاخب الكثير المفاجآت.

بذلك سيتيح فرينيه للتعليم الفرنسي فرصا ذهبية لتطوير العمل التعليمي وتنشيطه، بتقليص مجال التعليم اللفظي لصالح التدريس العملي، المبني على المشاركة الجماعية التعاونية للأطفال في بناء المعرفة وأدوات التدريس على حد سواء. فأضفى طابع الحيوية على الحياة المدرسية، ووضع أسس مخطط مبسط وشامل وسهل التحقيق لإدماج المدرسة في محيطها الاجتماعي وجعلها أداة حقيقية وفعالة لتيسير اندماج الأطفال في الحياة الاجتماعية وتشريب القيم الثقافية والحضارية السائدة.

فبعدما كانت فكرة التعاون المدرسي يقتصر معناها على إنجاز بعض الأعمال البسيطة كإصلاح بعض المرافق والتجهيزات، والقيام ببعض الترميمات، ورغم بساطة هذه الأعمال، فإن مردودها المادي المباشر، لفت إليها أنظار المربين، وكان داعيا لبذل الجهود للاهتمام بالجانب التربوي والاجتماعي والفني في الحقل التعاوني، وتسخير هذه الأدوات واستثمار فعالية الطفل بما يعود عليه بالنفع ويساهم في تكوينه وإدماجه في مجتمعه، فتمكن المربون من إبراز الوجه الحقيقي الإيجابي للتعاون المدرسي ودوره المهم في تنظيم الحياة المدرسية وتيسير اندماج الطفل فيها والرفع من مردود العمل التعليمي. ومن فرنسا، ستعرف تجربة التعاون المدرسي انتشارا في عدد من البلدان، ومن بينها المغرب.

تجربة التعاون المدرسي في المغرب

عرفت المدرسة المغربية نظام التعاون المدرسي، ابتداء من سنة 1962 التي تم فيها إنشاء مكتب بوزارة التربية الوطنية بالاستعانة بأحد الخبراء الفرنسيين، أسندت إليه مهام تتبع هذا النشاط والتعريف به في الأوساط المهتمة بالتربية والتعليم، وابتداء من السنة الدراسية 67 – 68 تم تعيين موظفين بسائر النيابات الإقليمية لوزارة التربية الوطنية كمسؤولين على قطاع التعاون

المدرسي بالمؤسسات التابعة لنفوذ الإقليم، استفادوا من ابتعاث إلى فرنسا للاطلاع عن قرب على تجربة التعاون المدرسي فيها، كما تم وضع الترتيبات النهائية لتأسيس جمعية تنمية التعاون المدرسي على الصعيد المركزي، بينما صدرت عن وزارة التربية الوطنية تعميمات دعت إلى إحداث التعاونيات المدرسية وتعاونيات الأقسام بالمؤسسات التعليمية، إلى جانب إحداث فرع جمعية تنمية التعاون المدرسي بسائر المدن المغربية.

حرصت هذه المذكرات على شرح مبادئ التعاون المدرسي وإبراز أصوله الدينية والاجتماعية والحضارية وأسسه النفسية والتربوية، ومجالاته وأهدافه مع تعداد مزاياه للمعلم والطفل. كما تحرص هذه الوثائق على شرح وتحديد بعض الإجراءات والتنظيمات الضرورية لتدبير أمور التعاونية وتسيير شؤونها الإدارية والمالية: تشكيل المكتب، توزيع المهام، طرق تحصيل الانخراطات وتوزيعها ومجالات الصرف وشروط إمساك سجلات الحسابات والممتلكات وغير ذلك من الأمور.

وتحدد هذه الأدبيات تعريف التعاون المدرسي على الشكل التالي: التعاون المدرسي حركة تربوية تعتمد عنصر التنشيط التربوي والتواصل لدعم العمل التعليمي النظامي والقيام بأنشطة تربوية تعاونية مدمجة وموازية تهدف بالأساس إلى إذكاء عملية التعلم الذاتي للمتعلم والمساهمة في انفتاح المؤسسة التعليمية على العالم الخارجي وإدماجها في محيطها الاجتماعي.

كما تحصي أهدافا عديدة للأنشطة التعليمية التربوية الموازية الممارسة في إطار أنشطة التعاون المدرسي؛ ومنها:

- تساهم في انفتاح المدرسة على محيطها الاجتماعي والاقتصادي؛ وتيسر اندماج المدرسة في بيئتها المحلية؛
- تدعم المواد الدراسية ضمن المقرر من خلال التعليم المندمج، وتثبت التعلمات المدرسية أثناء مختلف الأنشطة المزاولة في الوقت الثالث؛ وتذكي عملية التعلم الذاتي عند التلاميذ؛
- تمكن التلاميذ المحتاجين من الوسائل التي يمكن أن تساعدهم على الإقبال على الدراسة والتحصيل؛ وتساهم في الرفع من وتيرة تمدرس التلاميذ وتشجع على المواظبة الدراسية لهم؛
- تساهم في تكوين المواطن المدرك لمسؤولياته تجاه نفسه ومجتمعه والعارف بحقوقه وواجباته.

وبمراجعة تعريف التعاون المدرسي وأهدافه، يتبين لنا أن الأمر لم يعرف تطورا أو تغيرا كبيرين منذ أن وضع الرواد أسس التعاون المدرسي في مدارس أوروبا. فما ذكر

أعلاه لا يختلف كثيرا عما سطره فرينيه وأتباعه في مذكراتهم ومصنفاتهم.

إجراءات ترسيخ التعاون المدرسي

رغبة في تطوير المدرسة المغربية وتيسير السبل نحو تنشيط الحياة التعليمية، وتفادي العوائق التي تحول دون ذلك، أوصت مؤتمرات جمعية تنمية التعاون المدرسي وخاصة المؤتمر الخامس بإعادة النظر في هياكل التعاونيات المدرسية بالارتكاز على تعاونيات الأقسام، وجعلها المنطلق الأساسي القاعدي لتكوين التعاونيات المدرسية، وتطبيقا لهذه التوصية دخلت التعاونية المدرسية مرحلة جديدية من تاريخها، وراكمت المؤتمرات الأخرى مزيدا من التوصيات التي عرفت طريقها إلى التنفيذ بفضل جهود أطر الجمعية وساهمت بشكل فعال في النهوض بالتعاون المدرسي والأنشطة الموزاية:

1. تركيز جهود الجمعية وفروعها على توفير الأجواء الملائمة لتعميم تعاونية القسم وتطوير أساليب العمل بها وتكوين المسيرين القائمين على شؤونها. وضع التنظيمات الأساسية لتعاونيات الأقسام وتحديد أهدافها ونشاطاتها وطرق تسييرها؛ ربط نشاط تعاونية القسم بأهداف التعليم وبمختلف مواد البرنامج؛ الاهتمام بتدعيم القسم وتزيينه وجعله حظيرة للتعاون، يؤدي فيها كل تلميذ دوره بتعاون مع باقي المتعلمين؛ فتح آفاق جديدة من التعاون من أجل تسخير النشاطات التعاونية لتدعيم الدروس؛ (المؤتمر 5 و6)

2. النهوض بالإعلام التربوي بإصدار مجلة صدى التعاون، ابتداء من سنة 1968، التي تعتبر إضافة نوعية ومنبرا إعلاميا تربويا، سد فراغا هائلا في مجال الإعلام التربوي المهني، والتنشيط التعاوني. وتعززت هذه الخطوة الإعلامية التربوية بإصدار مجلة العندليب إسهاما في إثراء حقل ثقافة الطفل ووسيلة فعالة لدعم العملية التعليمية وربط جسور التواصل مع الأسرة والوسط الخارجي (المؤتمر 6) وقد عرفت المجلة تطورا ملحوظا، كما بذلت كثير من الفروع جهودا في سبيل إثراء هذا الحقل بمجلات ونشرات أخرى موجهة للأطفال؛ كما أصدرت نشرة لقاء الإخبارية، وبعدها مجلة المسرح المدرسي.

3. إثراء البحث والإنتاج التربوي، عبر إصداراتها المتنوعة الهامة، منها سلسلة من البطائق التقنية (حوالي 250) والكتب المرجعية والدلائل التربوية لأنشطة المسرح المدرسي، والبستنة المدرسية، والمعامل التربوية، والأناشيد، والأعمال اليدوية، وغيرها. ساهمت في إثراء الركام الوثائقي التربوي الوطني، وكانت خير معين للمدرسين لتعميق خبرتهم التربوية والمهنية والفنية.

4. تنظيم يوم وطني للتعاون المدرسي

في السبت الأخير من شهر نونبر كل سنة، لإعطاء الانطلاقة لممارسة التعاون بجميع مستوياته؛ وتم الاحتفال به أول مرة في نونبر من عام 1976 (المؤتمر 6)

5. إعادة النظر في التنظيمات المتعلقة بتكوين المسيرين لتساير التطور التربوي والمعطيات الموضوعية لتعاونية القسم؛ (المؤتمر 6)

6. إقرار تنظيمات إدارية ومالية جديدة لضبط الحسابات المالية للتعاونيات المدرسية وفروع الجمعية وتنميتها وتوخي الدقة والشفافية في تسير الجانب المالي والإداري لهذا القطاع، كوضع مشروع صرف مداخيل التعاونية المدرسية، يوزع الرصيد على عدة أبواب وفق نسب معينة، مع ضرورة احترام الأبواب المخصصة لصرف أرصدة التعاونية المدرسية طبقا للمذكرات التنظيمية والحد من الصرف خارج العمل التعاوني. (المؤتمر11و12)

7. تكوين لجن وطنية وجهوية وإقليمية، للقيام بدراسات لتنمية النشاط التعاوني وتوسيع مجالاته وإعداد برامج تنفيذ مختلف التوصيات والأنشطة (المؤتمر 12) أشرفت اللجن على عدد من الأعمال والتقارير وأصدرت عددا من النشرات والدلائل والكتب في مجال التعاون المدرسي.

8. إحداث أندية تربوية، التي تتخذ مسميات متنوعة كالمركبات التربوية والمنتديات وغيرها، تضمن للأطفال استمتاعهم بحقهم في الترفيه والتثقيف والحصول على المعلومات واستثمار الوقت الثالث وممارسة الهوايات المثمرة وتحقيق الذات وتوفير فرص التفاعل الاجتماعي والتربوي مع أقرانهم.

ماذا حققت تجربة التعاون المدرسي للتعليم المغربي؟

التعاون المدرسي مجال خصب ضمن مجالات التعاون في مفهومه العام، ... ويسعى إلى إعداد المواطن الصالح ويساهم في تكوين الفرد وجعله قادرا على التفتح على بيئته، ويرعى اهتماماته ليساير تطور الحضارة الإنسانية، وهو مجال حيوي لتوفير الإمكانات المعرفية والتربوية التي تحقق لهذا الفرد فرص التعامل مع الأنماط الحضارية التي تجعله فاعلا ومتفاعلا معها بفضل معطيات ووسائل تساهم في رعاية الجوانب والأبعاد التي تنادي بها التربية الحديثة.

إن الأهداف المبينة للتعاون المدرسي تجعل منه حركة تربوية داعمة للمجهود التنموي الوطني في المجالات المختلفة كالارتقاء الاجتماعي وتعميم التعليم وتحسين مردوده وبث الوعي بحقوق الطفل وإنعاش الثقافة الوطنية وغير ذلك من الحقول والمجلات التي يتصدى لها هذا المجهود

والتي يمكن استعراض بعض أوجه نشاطها فيما يلي:

محاربة الهشاشة والفقر

تعد الفروق الاجتماعية بين التلاميذ من العوامل المؤثرة في نتائجهم الدراسية، ومن أسباب عدم التكيف المدرسي للتلاميذ المنحدرين من أوساط فقيرة، لذلك كان موضوع التقليص من آثار هذه الفوارق هاجسا للمربين، وبفضل الجهود المبذولة في إطار جمعية تنمية التعاون المدرسي، فقد تم تحقيق كثير من المنجزات في هذا الحقل، وتكشف التقارير السنوية لفروع الجمعية عن أنشطة متنوعة، نذكر منها:

توزيع النظارات الطبية وأدوية الإسعافات الأولية على فقراء التلاميذ الذين يعانون قصورا في قدراتهم على الإبصار، وكذا آلات التعويض الجسماني كالعكازات وغيرها؛

توزيع المحافظ والأدوات المدرسية على التلاميذ، وتزويد المكتبات المدرسية بعشرات النسخ من الكتب المدرسية لتوضع رهن إشارة التلاميذ، وقد دعمت وزارة التربية الوطنية هذا العمل ببرنامج تزويد المكتبات المدرسية بالأوساط القروية بالخصوص، بمئات النسخ من الكتب توزع التلاميذ مقابل أداء ربع ثمنها المثبت على غلافها، ومنح التعاونيات المدرسية تفويض تدبير المبالغ المالية المتحصلة من العملية لتنمية المكتبة وتعويض الكتب المستهلكة.

دعم المطاعم المدرسية اعتبارا لأهميتها في تحقيق تكافؤ الفرص أمام التلاميذ للاستفادة من التمدرس في ظروف ملائمة مشجعة، بتخصيص نسبة من مداخيل التعاونيات المدرسية على مستوى المدارس وعلى مستوى الفروع بالنيابات لتغطية بعض النفقات التي يتطلبها نقل مواد المطعم المدرسي على المستوى الإقليمي، ودعم الوجبة الغذائية ببعض المواد والمأكولات على مستوى التعاونيات المدرسية، ويضاف إلى ذلك ما تنتجه بعض البساتين المدرسية من الخضر والفواكه والبقول والقطاني التي يستهلكها التلاميذ ضمن الوجبات الغذائية في هذه المطاعم.

المخيمات الصيفية: دعم عملية التخييم المدرسي، بتخصيص نسبة من المداخيل لفائدة جمعية المخيمات الصيفية المدرسية، كما تنظم الجمعية مخيمات ربيعية لفائدة تلاميذ الوسط القروي بعدد من المدن المغربية.

دعم حقوق الطفل

وتترجم كثير من الأنشطة التعاونية فصول وبنود الميثاق الدولي لحقوق الطفل، تتيح تطبيقها، بشكل فعال ونادر، بحيث أن المناهج المدرسي التقليدي لا يتيح للطفل

الفرص الذهبية التي يتيحها له نشاط التعاونية المدرسية في التمتع بحقوقه وممارستها وتثبيتها والدفاع عنها؛ فالمتعلم الصغير يؤلف مع زملائه جمعية، يؤسسها وفق التنظيم المعمول به ويشكل مكتبها بطريقة ديمقراطية تعتمد الترشيح والاقتراح الحر في جو شفاف يرعاه ويتابعه الأطفال، (المادة 15) وهذا باب مهم من أبواب التشارك والمساهمة في الاهتمام بالشأن المحلي المدرسي القريب منه، ودرس كبير من دروس التربية الوطنية والديمقراطية والتربية على حقوق الإنسان. مما يعتبر أداة ضرورية لإعداده لحياة تستشعر المسؤولية في مجتمع حر وديمقراطي، يتسم بروح التفاهم والسلم والتسامح.

كما أن أنشطة التعاون المدرسي تتيح له فرص استثمار وقت الفراغ استثمارا مفيدا ممتعا، يزاول فيه الأنشطة التي تنمي مختلف جوانب شخصيته، البدنية والعقلية والعاطفية وغيرها إلى أقصى إمكاناتها، التي تلائمه وتنسجم مع ميوله ورغباته، دون إكراه أو جبر، (المادة 31 و29) وتحترم حقه في المشاركة والمساواة واحترام ذاته وهويته الثقافية وقيمه الخاصة.

أما في الحقل الثقافي والإعلامي، فغني عن البيان ما تقدمه التعاونيات المدرسية وفروع جمعية تنمية التعاون المدرسي للطفل من فرص الوصول إلى المعلومات ونشرها، فضلا عن إسهامها الفعلي والقيم في تشجيع ثقافة وأدب الطفل بإصدارها المجلات المدرسية ومجلات الفروع الإقليمية وكتب وقصص الأطفال، إضافة إلى إحداث مكتبات للأطفال وأندية الإعلاميات والمسرح والفنون التشكيلية وغيرها.

دعم المجهود التنموي الوطني

تتوخى التربية إرساء قواعد وأسس بناء مجتمع توظف فيه طاقات أفراده المتجددة وتستثمر قدراتهم الخلاقة عن طريق تدريب المتعلمين على ذلك عبر كل المجالات المتاحة لها، والنشاط التعاوني أحد أهم هذه المجالات، فالمتعلمون يتدربون بشكل فعال من خلال تأسيس تعاونية المدرسية وتسير مرافقها وتخطيط برامجها وحضور اجتماعاتها على تنمية أنفسهم وجماعتهم بتحديد حاجاتهم الفردية والجماعية؛ وتعرف مشاكل حياتهم المدرسية والجماعية؛ ورسم الخطط الكفيلة بسد هذه الحاجات وعلاج تلك المشكلات؛ وتنفيذ هذه الخطط معتمدين في ذلك على الموارد الذاتية إلى أقصى حد ممكن واستكمالها.

ولأجل ذلك فطنت التعاونيات المدرسية إلى أهمية خلق أندية التربية البيئية والصحية والتثقيف النسوي والتربية السكانية. ونظمت تدريبات عديدة لرجال التعليم، ووضعت مناهج متنوعة لكل المستويات التعليمية، وتصورات حول كيفية تنفيذ تلك

البرامج وإدراج مبادئها في مختلف أنشطة التعاون المدرسي سواء داخل الفصول الدراسية أو خارجها خلال أنشطة الوقت الثالث، بالاتصال والاحتكاك المباشرين خلال الحياة العامة، أو خلال الرحلات والخرجات الدراسية، وكذلك بواسطة المناشير والملصقات والوثائق المكتوبة التي يصدرها التلاميذ.

دعم التعليم المدرسي

يعتبر المؤتمر السابع لجمعية تنمية التعاون المدرسي المنعقد في دجنبر 1978 حدثا هاما، تميز بخطاب أهم ألقاه وزير التربية الوطنية، أكد خلاله العزم على مباشرة إصلاح شامل لبرامج التعليم بغية مواكبة التطورات التي يعرفها العالم في مجال التكنولوجيا والاتصال والمعارف والعلوم، وأكد بأن الإصلاح سيحرص على جعل التعليم يمنح أهمية أكثر للقدرات العقلية « بالتخفيف من حصص التعليم النظري، وتخصيص حصص للأعمال التطبيقية التي تتيسر معها التربية المتكاملة المتوازية، ويتم ذلك بممارسة نشاطات فكرية تعتمد البحث والتنقيب والمقارنة باستغلال البحوث الدراسية والخزانات المدرسية والمسابقات الثقافية والتراسل المدرسي، وتنظيم نشاطات فنية في ميادين الرسم والنحت والموسيقى، والقيام بنشاطات موسعة في ميادين الأشغال اليدوية»

هذا الإصلاحات عمل على تعزيز مكانة عملية التعلم لتحل محل عملية التعليم، أي التركيز بالأساس على نشاط المتعلم العملي والخاص من خلال التتبع القريب للمعلم، وفرص تحقيق ذلك كثيرة من خلال الأنشطة التعاونية المتنوعة، ومن خلال ما يمكن أن يبتكره المعلم وتلاميذه، لإضفاء طابع الحيوية على الدرس اليومي وإمتاع المتعلمين، ومساعدتهم على تحقيق تكيف دراسي ملائم.

ومن ذلك الأنشطة الموازية التي تعد من الروافد الأساسية لعدد لا يستهان به من المواد الدراسية، لذلك فهي مهم كوسيلة داعمة للدروس ومثبتة للتعلمات ومحققة لأهداف للتربية السوسيوثقافية وأداة إشعاع على الوسط المحلي.

ولما كانت جمعية تنمية التعاون المدرسي هي الحاضن الرسمي لمشاريع التطوير والإصلاح التربوي، فقد تبنت عددا من التجارب التي توخت تطوير وتجديد النظام التربوي والعملية التعليمية المدرسية، ومن هذه التجارب الهامة:

تجربة التعليم المندمج: فابتداء من سنة 1980، انتقلت الجمعية من التنشيط الموازي إلى التنشيط المندمج، هذه الخطة التي تتخذ النشاط المدرسي أساس التعليم المندمج، تعتبر جزءا من التربية الحديثة في أفق التنمية الشاملة، وتعتمد التنشيط

التربوي لدعم العملية التعليمية المدرسية من خلال إنجاز أنشطة تربوية تعاونية مندمجة وموازية، تهدف إلى إقدار المتعلمين على إجادة تقنيات التعلم التشاركي ورفع دافعيتهم إليها والمساهمة في انفتاح المؤسسة التعليمية على المجتمع وتنميته.

مركز الوسائل التعليمية: ابتداء من سنة 1983 أقامت الجمعية بكل المدن المغربية، مراكز لإنتاج الوسائل التعليمية والبحث في تكنولوجيا التعليم، ورافقت هذه الخطوة تنظيم مسابقات لابتكار وتطوير الوسائل التعليمية، وتنظيم حلقات دراسية وتداريب، وإنشاء ورشات لفائدة الأساتذة.

إدراج المسرح المدرسي في المنهاج: لذلك وجهت التعاونية المدرسية اهتماما بارزا للنشاط المسرحي المدرسي، وابتداء من سنة 1987، عندما قرر الإصلاح التربوي إدخال مادة المسرح في المنهاج الدراسي وأقيم في هذا الموسم بالذات تدريب وطني في المسرح المدرسي برعاية جمعية تنمية التعاون المدرسي. وفي سنة1991م، ستتأسس اللجنة الوطنية للمسرح المدرسي باعتبارها إطارا وطنيا سيهتم بتطوير المسرح المدرسي وتفعيله وترجمته نظريا واقعيا داخل فضاء المؤسسة التربوية المغربية.

عرف مسار المسرح المدرسي في المغرب تطورا كبيرا بفعل احتضان جمعية تنمية التعاون المدرسي له وتنظيمها المهرجانات السنوية للمسرح والتنشيط التربوي، واستطاعت بذلك ان تؤسس لفعل مسرحي بالمؤسسات التعليمية الابتدائية ينطلق من اقصائيات إقليمية وجهوية وما يرافق هذه الاقصائيات من مهرجانات يطبعها التنافس وغزارة الإنتاج وجودته.

إحداث الأندية التربوية في بحر السنوات الأولى من الثمانينيات الماضية، حفزت الجمعية فروعها المنتشرة بمدن المملكة، على إحداث أندية تربوية، تستقطب التلاميذ خلال أوقات فراغهم، وتتيح لهم فرص ممارسة أنشطتهم الثقافية التربوية وهواياتهم المتنوعة، وكانت الأندية تضم قاعات متعددة الوسائط، جهزت آنذاك بحواسيب صخر المزدوجة اللغة التي كانت تنتجها شركة العالمية، وبرانم تربوية تعليمية، إلى جانب تجهيزات ومعدات سمعية بصرية، فضلا عن مكتبات أطفال، وقاعات الرسم، والموسيقى، والمسرح والعلوم وغير ذلك من الأندية التي تأسست في مدن كثيرة برعاية الجمعية، وتنوعت برامجها وتجهيزاتها ونظم عملها بحسب اجتهادات ومبادرات المشرفين عليها، ولكنها أثمرت نتائج هامة على المستوى التعليمي المدرسي، وعلى مستوى تثقيف وتنشيط الأطفال.

المشاريع المنجزة بتعاون بين وزارة التربية الوطنية وصندوق الأمم المتحدة لرعاية السكان (FNUAP) في مجالات

إدماج التربية السكانية والبيئية في المناهج التعليمية؛ قامت الجمعية من خلال أنشطة التعاون المدرسي، بدور بارز في نشر مبادئ التربية السكانية والبيئية، ومازال دورها رياديا على الصعيد الوطني في هذا المجال، يدعم بشكل قوي وبارز الدور المدرسي الرسمي من خلال الدروس اليومية التي تحمل أيضا في مضامينها هذه المبادئ وتلقنها للتلاميذ.

إلى جانب ذلك، قامت جمعية التعاون المدرسي، على الصعيدين المركزي والمحلي، بتنظيم دورات تدريبية، وتأطيرها، وتمويلها، حول الموضوعات السالفة الذكر. إلى جانب النشاط الإعلامي للجمعية وفروعها، من خلال الإصدارات الكثيرة والمتنوعة والهامة حول التربية السكانية، والبيئية والصحية، والغذائية، وغيرها، ساهمت في إثراء الركام العلمي والإعلامي في هذه الحقول التربوية المعرفية الهامة. ووفرت للمدرسين والعاملين في الحقل التربوي مراجع هامة يعتمدون عليها، ودلائل يسترشدون بها، ومناشير ووثائق وجدادات وغيرها يستأنسون بها.

تجربة التعاون المدرسي في الميزان

وبعد مضي نصف قرن على إحداث نظام التعاون المدرسي بمدارسنا، وما راكمته هذه العقود من تجارب ورصيد وثائقي، ومعرفة بأصول التعاون المدرسي وأهدافه وتنظيماته، بالرغم من ذلك، فإنه عند طرح موضوع التعاون المدرسي للبحث والنقاش تطفو على السطح كثير من الملاحظات والأمور التي تنم عن غياب وعي حقيقي بطبيعة نظام التعاون المدرسي وإطاره القانوني وأهدافه التربوية وغاياته؛ فرغم ما بذل من عمل وما تم تحقيقه والذي يمكن اعتباره نتيجة طبيعية لمختلف الجهود المبذولة على مختلف المستويات، فإن ذلك لا يرقى إلى مستوى طموح المربين المتشبعين بروح التربية التعاونية المؤمنين بها كطريقة عمل ووسيلة تربوية مطبوعة بالشمولية والتفتح، ومن الملاحظات التي يمكن رصدها:

1. عدم إشراك التلاميذ بصورة حقيقة في تسيير شؤون التعاونية المدرسية والتخطيط للأنشطة التربوية الموازية؛ عدم الاهتمام بالنشاطات التي لها مساس مباشر بحياة التلاميذ وميولهم وحاجاتهم اليومية؛ التخوف من المشاكل والحوادث التي قد تطرأ عند بقاء التلاميذ بالمؤسسة لمزاولة النشاط خارج أوقات الدرس، أو عند الحاجة إلى الخروج من فضاء المدرسة لممارسة أنشطة الهواء الطلق أو الزيارات؛

2. قلة مشاركة أطر هيأة التعليم بمختلف مستوياتهم في الأنشطة ونسبة المنشطين الفعليين ضعيفة بالمقارنة بعدد العاملين في المؤسسات التعليمية؛ إلقاء عبء التسيير والتنشيط على المعلمين المتطوعين وقلة الإقبال على العمل التطوعي الحر من

طرف هيأة التعليم خارج أوقات العمل؛ مما دفع المديرين والمعلمين إلى حد المطالبة بضرورة تعيين منشطين متفرغين اقتناعا منهم بجدوى التنشيط وغيرة عليه؛

3. الفتور الذي يطبع جل الأنشطة المناسباتية؛ عدم إدماج النشاط التعاوني في إطار تجديد أساليب التعليم، وعدم الاهتمام بكيفية هذا الإدماج في خدمة الدرس؛ وذلك ناتج عن عدم إدراك المفهوم الحقيقي للتعاون المدرسي لدى شريحة مهمة من العاملين في قطاع التعليم (مديرين، معلمين، مفتشين) واختلاف المفاهيم والتصورات يؤدي إلى بروز خلافات بين هؤلاء الأطراف؛

4. يعتبر جل المعلمين نشاط التعاون المدرسي ثانويا، ولا ينظرون إلى طبيعته الموازية للتعليم، فما زالت أغلب الأنشطة تكتسي طابعا فرديا ينحصر في الهوايات غير الموجهة وغير المستثمرة، كجمع الطوابع البريدية والاقتصار على ترتيبها في ألبومات بشكل عشوائي أخرس، دون استنطاقها بتأملها وتحليل مكوناتها من رسوم وعبارات وألوان، كما أن اليوم الوطني للتعاون المدرسي يكاد مفهومه يقتصر على تسخير التلاميذ في تنظيف الأقسام، وكثير من الأنشطة والممارسات تكتسي طابعا عشوائيا وظرفية خاضعة للصدفة والمناسبات؛

5. قيام بعض المديرين بإجراءات تخص التعاونية المدرسية أو رصيدها المالي دون استشارة المنشطين ومكتب التعاونية، مما يعتبره بعض المنشطين تجاوزا يثير حفيظتهم واحتجاجهم؛ صرف رصيد التعاونية المدرسية في أمور لا تعود بالنفع على المتعلمين كأعمال الترميم والصيانة واقتناء أدوات المكتب وأداء الاشتراك في صندوق البريد وغيره؛ غياب الدقة في تدبير مالية التعاونية المدرسية.

والآراء المستطلعة لهيأة التعليم تتفق على أن مرد ضعف الأنشطة التعاونية في المدارس هو جو الفصل الدراسي الذي لا يناسب، ومحدودية الوسائل التعليمية المتاحة للمعلم وضعف تكوين وخبرة كثير من المعلمين بأهمية النشاط واكتظاظ المؤسسات التعليمية إلى جانب هيكلة المؤسسة التعليمية وقلة أطرها التربوية وتصميمها المعماري مع قلة المرافق التربوية المتخصصة إلى جانب صرامة النظام الإداري وعدم مرونته واكتظاظ البرنامج وعدم القدرة على التصرف في استعمال الزمن وغيرها من العوامل تحول دون بلوغ الأهداف المرجوة وتؤثر سلبا على مشاعر الأطفال نحو مؤسستهم وحالتهم النفسية داخلها.

خاتمة

إن جهودا كثيرة يبادر بها مربون ومعنيون بالشأن التربوي التعليمي، تسعى إلى فك الحصار عن المدرسة والتلميذ،

وتطرح لأجل ذلك طرقا تربوية بديلة تتأسس على أنشطة معتمدة بالدرجة الأولى على فعالية الطفل وقدراته النامية. كما أن السياسات التعليمية في دول العالم والتجارب التربوية تسعى لأن تجعل من المدرسة فضاء لتطبيق نتائج العطاء العلمي في حقل الطفولة، والذي أفرزته أبحاث علوم التربية، وهي نتائج لا تخلو من قيمة وفائدة للطفولة، وتدعو إلى إقرار تربية تسمح للطفل بالمساهمة الفعالة في تكوين ذاته واكتساب تعلماته، وأول الخطوات نحو هذه التربية تبدأ بانفتاح المدرسة على الحياة، وربط الحياة المدرسية بحياة المتعلم، وإيجاد مسارب بين المناهج التعليمية وبين اهتمامات المتعلمين ونشاطاتهم؛ هذه المسالك الواصلة بين المدرسة والمجتمع والطفل، كلما كانت آمنة واسعة وسريعة كلما كانت أكثر ضمانا لنجاح العمل التعليمي، وأكثر توفيرا لشروط النمو السليم للطفولة، لذلك حرص التعريف الوطني للتعاون المدرسي على تحديد هذه الأمور، ورسم هذه الأهداف منذ حوالي نصف قرن، وما زال أطر جمعية تنمية التعاون المدرسي يناضلون من أجل إقرارها وتعميمها عبر مختلف المنابر.

واليوم، وبعد مرور حوالي نصف قرن على ميلاد جمعية التعاون المدرسي، وفي ظل المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية، والتجديدات الهامة التي تعرفها مدرستنا، في أنظمتها، وهياكلها، وبرامجها، وتجهيزاتها، وبرزت في الساحة التعليمية المدرسية جمعية جديدة وهي جمعية مدرسة النجاح التي أضحت تؤسس بقرار إداري، وتقاطعت أنشطتها وغاياتها مع أنشطة وغايات جمعية التعاون المدرسي، وأتيحت لها الإمكانات المادية والدعم الإداري، يبدو أنه من الضروري إعادة التفكير في وضعية جمعية تنمية التعاون المدرسي على المستويات المركزية والجهوية والإقليمية، وفتح حوار علمي تربوي، يؤسس لخطة جديدة ويفتح الطريق للتلميذ المغربي في عالم التنشيط التربوي التعليمي والإبداع الفني والابتكار العلمي، باستثمار الخبرة الهامة التي راكمتها التجربة التربوية المغربية، والإمكانات التي أصبحت متاحة لها اليوم.